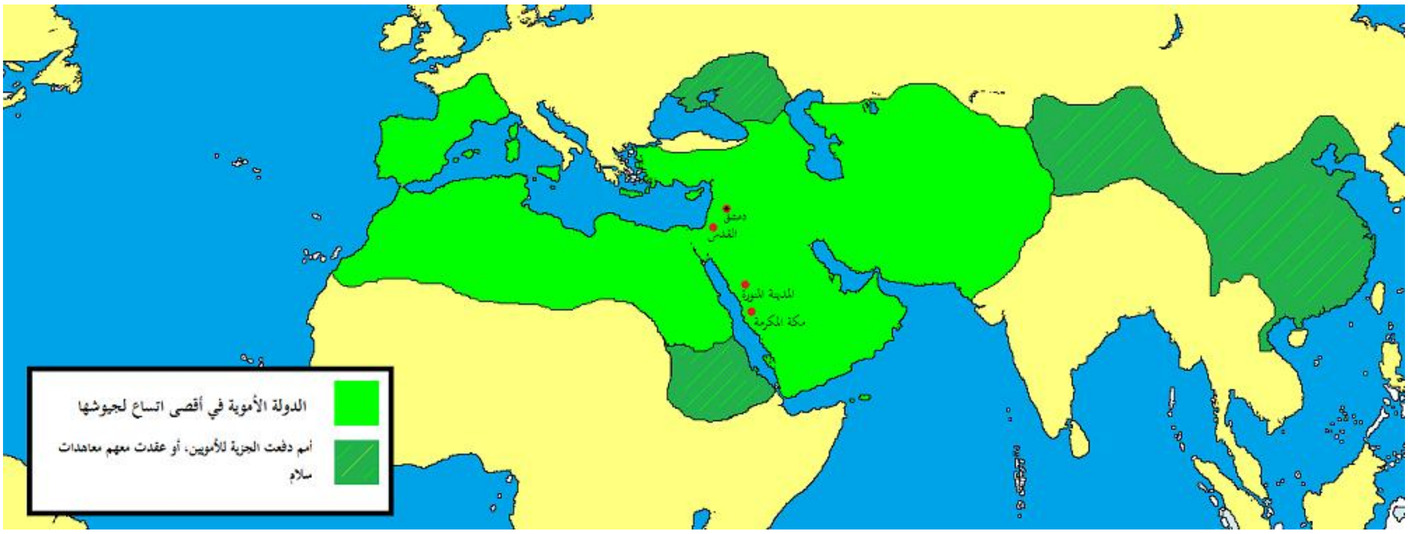
قصة الدولة الأموية



الدولة الأموية في أقصىا اتساعها

التاريخ الأموي بين الإجحاف والإنصاف

لا يُعَدُّ البحثُ في حقيقة التاريخ الأموي ترفًا ثقافيًا، بل يستمد أهمية علمية وتربوية قصوى في ضوء ما نلمسه من فوارق جمَّة -كما تصوِّر كتب التاريخ- بين نقاء عهد النبوة والراشدين وقتامة عصر الأمويين.

هذه النقلة المفتعلة قُصِدَ منها -إلى حدٍّ كبير- تقليص سنوات المجد والوَضَاءَة في التاريخ الإسلامي لأغراض يعرفها من يُقَدِّرُون دور التاريخ في صياغة الأمم والدفع بها إلى آفاق أرحب

إن قبول التاريخ الأموي كما يُعرَض علينا في جُلِّ كتابات القدماء والمحدثين يضعنا أمام تساؤلات ملحة تفرضها عدة تناقضات حادة

فنحن أمام دولة حققت إنجازات كبرى في مجال الفتوح ونشر الإسلام، وقدمت شخصيات فذة تركت آثارًا ضخمة في ميادين السياسة والحرب والإدارة، واستمرت تقود المسلمين –آنذاك- على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم وطموحاتهم أكثر من تسعين عامًا في دولة واحدة، امتدت من حدود الصين إلى جنوبي فرنسا.

غير أن كثيرًا مما وصلنا من تاريخ تلك الدولة لا يتفق مع عظمة منجزاتها سالفة الذكر؛ فقد ذاع عن ذلك العصر أنه كان عصر مؤامرات سياسية، ورِدَّةٍ خُلُقية، واضطراب اجتماعي، وخلل اقتصادي، واستهانة بمقدسات المسلمين؛ فتولدت عن ذلك ثورات كثيرة، وسالت دماء غزيرة، وهو العصر الذي شهد -كما استقر في أذهان كثير من المسلمين- توارث الحكم بعد أن كان شورى، وتبديد أموال الدولة على هوى حكامها بعد أن كانت مصونة، وهو العصر الذي شهد قتل الحسين ، وصلب ابن الزبير رضي الله عنهما، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وانتهاك حرمة المدينة المنورة، وظلم الموالي، إلى آخر ما يشيع عن بني أمية، وما أصبح يشكل في وعي الكثيرين صورة عن عصر قاتم. أما الإنجازات الكبرى التي سبقت الإشارة إليها فيثور حولها لغط كبير وغبش وجدال، تصعب معه الرؤية الصافية والنظرة المتسقة.

التحريف والكذب في تاريخ بني أمية:

تعرَّضَ التاريخ الأموي لكثير من التشويه والتحريف، واتسعت هذه الظاهرة لتشمل جُلَّ مصادر التاريخ الأموي، وامتدت لتترك بصماتها على بعض كتب التفسير والحديث التي تشكل مصدرًا خصبًا من مصادر التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة. وإذا كان الله تعالى قد قيض للحديث الشريف من يكشف صحيحه من ضعيفه وموضوعه، لما له من أهمية تشريعية خاصة، فإن طبيعة علم التاريخ واتساع مجاله وتعدد عصوره وفيض رواياته قد وقفت حائلاً دون تتبع كل محاولات التحريف والكذب فيه على اتساع مصادره وتنوعها

:الدلائل والبراهين على ثبوت التحريف
وتتعدد الأدلة على حدوث الكذب والتحريف في كتابة التاريخ الأموي؛ فقد أثبت بعض المؤرخين القدماء ذلك وحذروا منه، رغم أنهم لم يجدوا بُدًّا من ذكر هذه الأخبار الموضوعة لشيوعها أحيانًا، ولكيلا يتهمهم أحد بجهل شيء ذكره آخرون، أو لأنهم كانوا يعتبرون من الأمانة العلمية أن يذكر أحدهم كل ما يُروَى له، واتجه فريق آخر منهم إلى الانتقاء من هذا الركام الكبير، فاختار ما صَحَّ عنده، ونبه إلى زيف كثير مما عداه.

يقول شيخ مؤرخينا القدماء ابن جرير الطبري في مقدمة كتابه "تاريخ الرسل والملوك": "فما في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهًا في الصحة، فليعلم أنه لم يأتِ ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا". ويروي أبو الفرج الأصفهاني ما يعتبره من أكاذيب بعض الرواة، وينبه إليه أحيانًا فيقول: "وهذا من أكاذيب ابن الكلبي، وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه".

:ابن الأثير وابن العربي
هذا بينما ينتقي ابن الأثير بعض الروايات ويهمل بعضها، ويقول في سبب ذلك: "فإن الناس قد حشدوا تواريخهم بمقتضى الأهواء". ويشنُّ ابن العربي حملة عنيفة على أهل الأهواء من المؤرخين، ولا يثق إلا برواية أهل الحديث الذين يتفحصون رواياتهم ويميزون بين غثها وسمينها، يقول: "وغير ذلك هو الموت الأحمر والخطر الأكبر؛ فإنهم ينشئون أحاديث احتقار الصحابة والسلف والاستخفاف بهم، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم. فإذا قاطعتم أهل الباطل، واقتصرتم على رواية العدول سَلِمتم من هذه الحبائل".

ولكنّنا في روايتنا لقصة الأمويين نسعى إلى الوصول – بإذن الله – إلى أصح القصص، وتحليلها لكي نتمكن من رؤية الدولة الأموية على حقيقتها، ولا نتأثر بروايات المزورين الكاذبين

نشأة الخلافة الأموية
تأسست الخلافة الأموية عام الجماعة سنة 41 هـ، إثْر تنازل الحسن بن علي لمعاوية بن أبي سفيان جميعًا عن الخلافة؛ رغبةً في حقن دماء المسلمين، وتوحيدًا لكلمتهم بعد الذي حدث في الفتنة الكبرى من أحداث ومعارك، فكانت هذه النشأة قمعًا لأهل الفتنة، وتخييبًا لآمالهم، وما كانوا يرجونه لأمة الإسلام من الشر، كما كانت مصدرَ سعادةٍ واستقرارٍ للمسلمين بعد الفتن والقتال؛ ولذا كانت خلافة معاوية تامَّة الشرعية.

:الأمويون بين القوة والضعف
يتكون تاريخ الدولة الأموية من عصرين للقوة؛ امتد الأول من عام 41 إلى 64 هـ، وشمل عصر خليفتين هما: معاوية بن أبي سفيان ، وابنه يزيد.
وامتد الثاني من عام 86 إلى 125هـ، وشمل خمسة خلفاء هم: الوليد بن عبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز بن مروان، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك.

كما كان هناك عصر ضعف قصير امتد من عام 125 إلى سقوط الدولة في 132هـ، وشمل عددًا من الخلفاء.
وكان هناك عصر فتنة، وصراعات بين المسلمين، وقتال على الحكم من عام 64هـ إلى 86هـ، بدأ بمعاوية بن يزيد بن أبي سفيان، مرورًا بمروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان.

:الخليفة المؤسس والبداية القوية
أمّا بالنسبة لعهد القوة الأول، فقد بدأ مع أول خليفة أموي، وهو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وهو صهر رسول الله ، وقد قيل: إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء سنة 7 هـ، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي بسبب أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلا يوم الفتح، فيُروى عنه أنه قال: "لما كان عامُ الحديبية وصَدُّوا رسول الله عن البيت، وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي، فذكرت لأمي، فقالت: إياك أن تخالف أباك. فأخفيتُ إسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله من الحديبية وإني مصدق به، ودخل مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم، وعلم أبو سفيان بإسلامي، فقال لي يومًا: لكنَّ أخاك خير منك، وهو على ديني. فقلت: لم آلُ نفسي خيرًا، وأظهرتُ إسلامي يوم الفتح، فرَحَّبَ بي النبي وكتبتُ له. وقد كان من رواة حديث رسول الله ؛ فمعاوية

روى عن رسول الله أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين، ومسنده في (مسند بقيّ) مائة وثلاثة وستون حديثًا، واتفق البخاري ومسلم على أربعة منها، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة، وقد عمل الأهوازي مسنده في مجلد.

شهادات المؤرخين من السنة والشيعة:
تولى معاوية الخلافة ووراءه تجربة طويلة في الحكم والإدارة وسياسة الناس، فولايته على الشام قبل الخلافة لمدة تزيد عن العشرين عامًا، أكسبته خبرة كبيرة هيأت له النجاح في خلافته. والحقيقة أن معاوية كان يتمتع بصفات عالية ترشحه لأن يكون رجل الدولة الأول، وتجعله خليقًا بهذا المنصب الخطير.
وقد شهد له بذلك مؤرخو السُنَّة بناءً على رأي الصحابة الذين عاصروه، يقول ابن تيمية: "فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرًا من معاوية، إذا نُسِبَتْ أيامه إلى أيام من بعده، أمّا إذا نُسِبَتْ إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل".

كما شهد له عدد من المؤرخين الشيعة -رغم عداوتهم الشديدة لبني أمية- ومنهم ابن الطقطقا واليعقوبي والمسعودي.

وهكذا يكاد إجماعُ علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم ينعقد على الثناء على معاوية وجدارته بالخلافة، وحُسْنِ سياسته وعدله، مما مكَّن له في قلوب الناس، وجعلهم يجمعون على محبته، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي أنه قال: " خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ". رواه مسلم.

كان معاوية مجاهدًا في سبيل الله محبًّا للجهاد، كما كان إداريًّا بارعًا، واقتصاديًّا خبيرًا؛ لذا شهد عهده أعظم الرخاء للمسلمين، وكان المسلمون سعداء بحكمه.

خلافة يزيد بيعة أم وراثة
كبرت سن معاوية، ورأى أنه إن مات دون تحديد الخليفة القادم، فستُطِلُّ الفتنة برأسها من جديد؛ فأخذ يفكر فيمن يصلح لترشيحه للخلافة من بعده، وبعد تفكير اهتدى معاوية إلى أنَّ من يصلح للخلافة بعده، ويملك مقوماتها، وفي ذات الوقت يجمع اختياره الأمة، ويمنع اختلافهم، هو ابنه يزيد بن معاوية الذي أعدَّه معاوية إعدادًا حسنًا، كما أنه يملك مزيَّةً لا يملكها الكثيرون من المرشحين الذين هم أفضل منه في ميزان الإسلام كالحسين بن عليٍّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن الزبير جميعًا؛ لأنه يتمتع بأنصار كُثُر يؤيدونه، ويقاومون من يفكر في الخروج عليه، وهم بنو أمية أصحاب الشوكة والقوة في هذا العهد؛ لذا عهد معاوية بالخلافة لابنه يزيد من بعده، وأخذ البيعة من المسلمين على ذلك فيما عدا البعض الذين رفضوا أن يبايعوا، ومنهم الحسين وعبد الله بن الزبير جميعًا.

كانت هذه البيعة نقطة فارقة في حياة الدولة الأموية، وفي مسيرة الدولة الإسلامية ككل؛ إذ رغم أنها كانت ذات ظروف خاصة، خشي فيها معاوية من اختلاف الأمة، وتجدد الفتنة مرةً أخرى، إلا أنَّ من أتى من الخلفاء بعد معاوية استغلَّها في غير غرضها، فكان كل واحد منهم يستخلف أبناءه من بعده، فتحولت الخلافة الإسلامية التي كانت قائمةً على الشورى منذ عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الراشدين إلى مُلكٍ عضوض، يرث فيه الأبناء الملك عن الآباء، ولَئن كان معاوية معذورًا ومجتهدًا فيما فعله، فإن مَن جاء بعده لم يكن كذلك، بل سعى إلى جعل المُلك في عقبه عن غير سبب؛ فإن الفتنة بعد معاوية قد صارت بعيدة العهد، ويمكن رد أمر الخلافة في هذه الأوقات إلى الشورى، ولكن شهوة السلطة غيرت مسار الخلافة.

أحداث خطيرة في أول عهد يزيد
تُوُفِّي معاوية بدمشق في رجب سنة 60 هـ، وجُدِّدَت البيعة ليزيد بعد وفاة أبيه، ولم يَشِذَّ عن ذلك إلا الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وسيكون لكل منهما مع يزيد شأن كما سنرى، أما بقية الصحابة فقد بايعوا ليزيد جمعًا للكلمة، وحفظًا لوحدة الأمة، وخوف الفتنة مثل: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر.
وفي عصر يزيد حدثت عدة أحداث خطيرة جعلت المسلمين ينظرون إليه نظرة اتهام، ولو لم يكن هو مخطئًا فيها، ومن ذلك: خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما على يزيد استجابةً لأهل الكوفة، رغم رفض مَن وُجِد من الصحابة لذلك؛ خوفًا من شق عصا المسلمين، ولكن الحسين أصرَّ، وكان ما كان من أمر تخلِّي أهل الكوفة عنه كما تخلوا عن أبيه من قبل، ثم قتاله

بأهل بيته وأنصاره الذين لم يبلغوا الثمانين عددًا ضد قوات الوالي عبيد الله بن زياد بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص في كربلاء، ثم استشهاده ، ومن معه من الرجال.

يزيد يبكي الحسين ويكرم أهله
وقد نَدِمَ عبيدُ الله بن زياد على قتله الحسين، وبكى يزيد بن معاوية لمّا أتاه الخبر، وقال للرسول: كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية (عبيد الله بن زياد)، أَمَا واللهِ لو أني صاحبُه لعفوت عنه، ورَحِمَ اللهُ الحسين. ثم أكرم يزيد بن معاوية نساء الحسين وأهله، وأدخلهنَّ على نساء آل معاوية وهُنَّ يبكين ويَنُحْنَ على الحسين وأهله، واستمر ذلك ثلاثة أيام، ثم أرسل يزيد بن معاوية إليهن يسأل كل امرأة عما أُخِذَ منها؟ فليس منهنَّ امرأةٌ تدَّعي شيئًا بالغًا ما بلغ إلا أضعفه لها.
ثم أمر يزيد بن معاوية النعمان بن بشير أن يبعث معهنَّ رجلاً أمينًا معه رجال وخيل يصحبهن أثناء السفر إلى المدينة.

وعندما ودعهن يزيد قال لعلي بن الحسين (علي الأصغر): قبَّح الله ابن سمية، أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكنَّ الله قضى ما رأيت. ثم جهَّزه وأعطاه مالاً كثيرًا، وكساهم وأوصى بهم ذلك الرسول، وقال لعلي: كاتِبْنِي بكل حاجة تكون لك.

الحرة بالمدينة، وحصار الكعبة بالمجانيق
كانت حادثة كربلاء الشرارة التي أشعلت الحرب، كما تركت آثارًا سياسية خطيرة في العالم الإسلامي، فعندما وصل خبر : مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما إلى الحجاز أعلن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما خلع يزيد، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس في مكة، وكان ذلك سببًا في عزل عمرو بن سعيد بن العاص عن الحجاز، وتولية الوليد بن عتبة بن أبي سفيان مكانه، ثم لم يلبث أن عزله وأَمَّر عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وكَثُرَ الحديث في المدينة عن يزيد، فأرسل إليهم النعمان ابن بشير يحذرهم الفتنة، ويذكرهم الطاعة، فأبوا عليه، ثم أعلنوا خلع يزيد، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الغسيل، ووثبوا على عثمان بن محمد بن أبي سفيان، والي يزيد، ثم حاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي الألف شخص.

فلما علم يزيد بن معاوية بذلك أرسل إليهم جيشًا عليه مسلم بن عقبة المري، وإن حدث له حدث فالأمير من بعده الحصين بن نمير السكوني، وأقبل مسلم بن عقبة بالجيش، والتقى ببني أمية بوادي القرى، وقد أخرجهم أهل المدينة.

وصل مسلم بن عقبة المري إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام فأبوا إلا القتال، وكان عليهم: عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري، وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان، وعبد الرحمن بن زهير بن عوف الزهري ابن أخ عبد الرحمن بن عوف، وكان مجيء مسلم عن طريق الحرة الشرقية، ووقعت الوقعة وكانت في أواخر ذي الحجة من سنة ثلاث وستين للهجرة، وقُتِلَ أكثر سادة أهل المدينة في هذه الوقعة.

وعندما انتهى مسلم بن عقبة المري من المدينة اتجه بجنده نحو مكة يريد عبد الله بن الزبير، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي، ولم يقطع مسلم مسافة حتى نزل به الموت، فتولى أمر الجند بعده الحصين بن نمير السكوني حسب وصية يزيد بن معاوية فسار إلى مكة، وقد بايع أهلها والحجاز كله عبد الله بن الزبير، فقاومه ابن الزبير وقُتِلَ من أصحابه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وأخوه المنذر بن الزبير، واستمر القتال بقية المحرم وصفر من سنة أربع وستين، وفي أوائل ربيع الأول قُذِفَ البيت بالمنجنيق، وأُحْرِقَ بالنار، ثم جاءهم نعي يزيد في مطلع ربيع الثاني، وقد توفي في 14من ربيع الأول عام 64 هـ.

مبايعة عبد الله بن الزبير على الخلافة:
توفي يزيد وأهل الشام يحاصرون أهل مكة وابن الزبير، ووصل الخبر إلى ابن الزبير قبل أن يصل إلى أهل الشام، فناداهم أهل مكة: لماذا تقاتلون؟ لقد هلك يزيد. فلم يصدقوهم، واستمروا في قتالهم، فلما تأكدوا من النبأ توقفوا عن القتال.

بعث الحصين بن نمير إلى عبد الله بن الزبير، والتقى معه، وقال له: إن يكُ هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، هَلُمَّ فلنبايعك، ثم اخرج معي إلى الشام؛ فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم، فوالله لا يختلف عليك اثنان، وتُؤَمِّن الناس، وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة. ولكن ابن الزبير خشي من الذهاب

إلى الشام، ولم يرغب في مغادرة مكة التي احتمى بها، وكان رأي الحصين أن هناك بالشام من يطالب بالخلافة فماذا يكون موقفه؟ أمّا إذا ذهب عبد الله بن الزبير فإنه لن يطالب فيها أحد لمكانة ابن الزبير أولاً، ولعدم وجود أبناء كبار ليزيد أو أحد من أسرته يفكر في هذا الأمر.

ولما لم يتفق ابن الزبير والحصين بن نمير سار جيش الشام إلى بلدهم تاركين الحجاز مبايعًا لابن الزبير.
اعترض بعض علماء المدينة على خلع يزيد بن معاوية، والخروج عليه، ولم يؤيدوا من قام بالخروج، وقاموا بنصح إخوانهم واعتزلوا الفتنة، وكان أغلب هذا الرأي من أهل العلم والفقه في الدين، وفي مقدمة هؤلاء الصحابي الجليل والإمام القدوة عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن علي ابن أبي طالب (ابن الحنفية)، والنعمان بن بشير الأنصاري، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب جميعًا، وسعيد بن المسيب سيد التابعين رحمه الله.

خرجوا على الإمام رغم عظمتهم
كان مقتل الحسين، ووقعة الحرة بالمدينة، وحصار الكعبة بالمجانيق من أهم ما أساء لصورة يزيد بن معاوية رحمه الله، ولكن الرجل معذور؛ فقد كان الخليفة الشرعي، ومن خرجوا عليه -رغم عِظَم مكانتهم في الإسلام، وسابقتهم فيه، بل وأفضليتهم على يزيد بمراحل، كالحسين وابن الزبير جميعًا، وكذلك عبد الله بن حنظلة- في هذا الموقف كانوا خارجين على الإمام الشرعي المُبايَع من جمهور المسلمين الأعظم

عهدان من القوة والجهاد
كانت تلك هي فترة القوة الأولى في العصر الأموي، بينما جاءت الفترة الثانية بدايةً من عهد الوليد بن عبد الملك، وانتهاءً بعهد هشام بن عبد الملك

وقد تميز هذان العهدان بسيادة روح الجهاد؛ إذ حافظت الدولة في العصر الأموي على أن تظل أُمَّةً مجاهدة؛ فأبقت القسم الأكبر من مواردها المالية يُصرف في المجال العسكري. وإضافة إلى إخراج الرواتب للجند، والأرزاق للذرية، والمعونة للمقاتلة عملت الدولة على توفير وسائل القوة ووجوه المنعة للجيش؛ فأقامت المدن العسكرية في جميع جبهات القتال، وعبأتها بالجنود، وشجعت الناس على الانتقال إليها والإقامة بها، وأقطعتهم الأراضي الزراعية يستغلونها، والمنازل يسكنونها، ووفرت بها الطعام ومخازن الأسلحة والكسوة، وحَصَّنتها بالأسوار والخنادق، وبَنَتِ القلاعَ والحصونَ، وأقامتِ المناظرَ والمنارات على طول الطريق بين الثغور والداخل، وجعلت المواقد عليها لتكون أخبار الثغور حاضرة على الدوام عندها.

وقد تحول كثير من هذه المدن العسكرية إلى مراكز مدنية حافلة بالبناء وأماكن العبادة ومراكز الثقافة وأسواق التجارة، وأخذت تشهد نهضة طيبة في الوجوه المختلفة من النشاط البشري.

كما عززت الدولة القوة العسكرية بإنشاء سلاح البحرية، وأقامت دور صناعة السفن في عكا، ثم من بعدها في صُور من بلاد الشام، وفي جزيرة الروضة والفسطاط من بلاد مصر، وفي تونس، وزُوِّدَتْ هذه المصانع بما يلزم من المواد والصناع.

اتساع رقعة الدولة الإسلامية
لقد امتدت الفتوحات الإسلامية على يد الأمويين إلى آفاق لم يعرفها عصر الراشدين، حيث شملت دولة الإسلام ما بين الصين شرقًا وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا غربًا. وطرقت أبواب القسطنطينية، وضيَّقت عليها الخناق، وحاصرتها ثلاث مرات، وتحول بحر الروم إلى بحيرة إسلامية، ونشرت أعلام الإسلام في القارات الثلاث المعروفات آنذاك آسيا وإفريقيا وأوروبا، ودخلت أعداد غفيرة من البشر بذلك في دين الله، وأصبحت لغة العرب في أوج قوتها وثرائها، وأضحت لسانًا لكثير من سكان هذه البلاد، وتحققت ألوان فذة من البطولة والتضحية، وطلب الشهادة في سبيل الله خلَّفت ذكرياتٍ مجيدة، ظلت غذاء ومددًا على امتداد التاريخ وتوالي الأجيال حتى اليوم، ولا تزال مسامع الدنيا تعي أسماء مثل المهلب بن أبي صفرة، ويزيد بن المهلب، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم الثقفي، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، ومسلمة بن عبد الملك، وغيرهم.

عصر العلماء و الفقهاء زخر العصر الأموي بكثير من العلماء على امتداده الزماني والمكاني، يأتي في طليعتهم جيل الصحابة الذين عاصروا هذه الدولة، وتركوا آثارًا واضحة على الحياة السياسية والاجتماعية فيها، وجيل التابعين الذين أخذوا عنهم،

.وورثوا منهم، ونشروا علومهم وتراثهم

ونلاحظ أن أبرز الخلفاء الأمويين كانوا من العلماء، بل من كبارهم وسادتهم مثل: معاوية بن أبي سفيان الصحابي الجليل كاتب الوحي، ومن لا يُنكَر علمه وحِلمُه، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

وكان كثير ممن يحوط هؤلاء الخلفاء من العلماء والفقهاء الذين لم يقتصر دورهم على تعليم العلم وتدريسه، بل مارسوا السياسة، وعرفوا طرقها، فقلَّل ذلك من شهرتهم في مجال الفقه والدرس، وإن ظَلَّ بعضهم يحتفظ بمكانته في ذلك الميدان، ومن هؤلاء العلماء بعض الصحابة الذين كانوا قريبين من معاوية أثناء حكمه، مثل:
حبيب بن مسلمة الفهري، والنعمان بن بشير الأنصاري، والمغيرة بن شعبة،وعمرو بن العاص، ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري
وغيرهم رضوان الله عليهم، كما كان من القريبين من معاوية بعض أبناء الصحابة الأعلام مثل: الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير جميعًا.

اقـــوى الخلفاء

الوليد بن عبد الملك
وكما كان الوليد مهتمًّا ببناء المساجد، فقد اعتنى بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التي تؤدي إلى الحجاز لتيسير السفر على الحجاج إلى بيت الله الحرام، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار، وعمل الفوارة في المدينة، وأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأن يُسقَى منها أهل المسجد.

وإذا كان عهد الوليد بن عبد الملك قد اتسم بالإصلاح والتعمير في الداخل، ففي الخارج شهد أعظم الفتوحات في الدولة الأموية، بل في التاريخ الإسلامي كله - بعد فتوحات الخلفاء الراشدين - وقد برز في عهده عدد من القواد العظام الذين اتصفوا بالجسارة والإقدام والتضحية في سبيل الله، فاضطلعوا بعبء الفتوحات في الشرق والغرب؛ ففي المشرق وقف الحجاج في العراق ناشرًا جناحيه إلى الجنوب الشرقي، إلى إقليم السند، فأرسل محمد بن القاسم الثقفي ففتح هذا الإقليم، وإلى الشمال الشرقي فيما وراء النهر، أرسل قتيبة بن مسلم الذي فتح هذا الإقليم الشاسع وأدخله تحت راية الإسلام.

1\خ651أما في المغرب فقد تألق قائدان عظيمان هما: موسى بن نصير، وطارق بن زياد، اللذان فتحا الأندلس، كما اضطلع أخوه مسلمة بن عبد الملك وأبناؤه بمنازلة الدولة البيزنطية والضغط عليها، والاستيلاء على الكثير من حصونها وقلاعها في مناطق الحدود

والخلاصة أن عهد الوليد كان عهد الرخاء الواسع والازدهار العظيم، نَعِمَ الناسُ فيه بالهدوء والاستقرار، والبناء والعمران في الداخل، ووصلت فيه حدود الدولة الإسلامية من مشارف بلاد الصين حتى الأندلس، وأصبحت بحق أقوى دولة في العالم وقتئذٍ

وقد تُوُفِّي الوليد بن عبد الملك في منتصف جمادى الآخرة سنة 96 هـ، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك

سليمان بن عبدالملك
وعلى نفس النهج كان سليمان بن عبد الملك؛ إذ كان ورِعًا تقيًّا، ويتضح ذلك من خطبه فلا تكاد خطبة من خطبه تخلو من حث الناس على التقوى والخوف من الله ومدارسة القرآن. وتتضح هذه السيرة الطيبة من هذه الخطبة؛ فعن جابر بن عون الأسدي، قال: أول ما تكلَّم به سليمان حين ولي الخلافة أن قال: "الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع. إنَّ الدنيا دار غرور. يا عباد الله، اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارضوا به حكمًا، واجعلوه لكم قائدًا، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده".
كما اتخذ سليمان بن عبد الملك بطانة من صلحاء الرجال أمثال عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وغيرهما، وقد أثر ذلك في سليمان بن عبد الملك تأثيرًا كبيرًا، فقد كان عمر بن عبد العزيز دائم التذكير بمسئوليته نحو رعيته؛ فيُروى أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس سنة 97 هـ وهو خليفة، فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصِي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره. فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غدًا خصماؤك عند الله. فبكى

سليمان بكاءً شديدًا، ثم قال: بالله أستعين.
وكان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك، ويقول: افتتح خلافته بخير وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.
وتُوُفِّي سليمان بن عبد الملك في مرج دابق، مرابطًا في سبيل الله في شهر صَفَر سنة 99 هـ، وبُويِعَ في اليوم نفسه لابن عمه عمر بن عبد العزيز.

عمر بن عبد العزيز - غرة الخلفاء

أمّا غُرَّة خلفاء بني أمية، فقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله - رغم قصر مدته - إذ بدأها في صفر 99 هـ، وانتهت بموته رحمه الله في شهر رجب سنة 101 هـ، أي أنها استمرت حوالي سنتين وخمسة أشهر.
منهج مميز يحمل على العمل

ومن أهم ما يميز منهج عمر في سياسته في الخلافة، حرصه على العمل بالكتاب والسنة، ونشر العلم بين رعيته، وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر في ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهي حفظ الدين وسياسة الدنيا به، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم، وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال في إحدى خطبه: إن للإسلام حدودًا وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلئن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أَمِتْ فما أنا على صحبتكم بحريص. كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء؛ ليتفرغوا لنشر العلم، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويُقْرِئَهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها

اهتمامه بالعلماء وإحساسه بالفقراء
ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء وأسهم أكثرهم - بالإضافة إلى نشر العلم - في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله، وهذا الاهتمام الذي تميز به منهج عمر لتعليم الناس، وتفقيههم بأمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقه بين أفراد الرعية له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرها على الاستقرار السياسي والأمني، كأفكار الخوارج وغيرهم.

كان عمر بن عبد العزيز يدرك عظم الأمانة الملقاة على عاتقه، وأنه مسئول عن كل فرد في رعيته؛ فلذلك نجده دائم التفكير : فيما يصلحهم، فقد أهمه وقوفه بين يدي ربه، وماذا يقول له إذا سأله عنهم يوم القيامة، فيذكر ابن كثير: أن زوجته فاطمة بنت عبد الملك دخلت عليه يومًا وهو جالس في مصلاه واضعًا خده على يده ودموعه تسيل على خديه، فقالت له: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة! قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت.

إداري متمرِّس يحسن التصرف

تعتبر سياسة عمر بن عبد العزيز الداخلية من أهم الجوانب في خلافته، فقد كان عمر بن عبد العزيز إداريًّا فذًّا، ولا عجب في ذلك فقد عركته تجربة الإدارة منذ أن كان واليًا على خناصرة والمدينة، ثم تكاملت عناصر التجربة بعد أن أصبح من أقرب الناس إلى سليمان بن عبد الملك، يرقب الحوادث عن قرب، ويتمرس على شئون الدولة، وتسيير دفَّة الحكم فيها، وما أن تولى مقاليد الخلافة حتى ذهب يبذل كل جهده، ويُفني ما تبقى من عمره في إصلاح أمور الدولة، واستقرار الأمن والرخاء في ربوعها، وتحقيق العدالة والكفاية في كل أرجائها، وقد اتخذ لذلك منهجًا كان من أبرز معالمه الحرص على مال المسلمين، والمحافظة على الوقت والجهد، وسرعة التصرف في الأمور، وحسن اختيار القضاة والولاة والموظفين، وإزالة آثار كل عمل لا يساير روح الإسلام، وتحقيق التوازن بين الناس، ومجادلة الخارجين على الدولة بالحسنى لإقناعهم وردهم إلى حظيرة الجماعة، كما كان الطابع لهذا المنهج هو العدل والإنصاف والرحمة والإحسان.

كما كان لعمر بن عبد العزيز وقفته في السياسة الداخلية؛ ليعيد ما أعوجَّ من الأمور إلى نصابه، ويحاول إصلاح ما رآه

انحرافًا عن الجادة سواء في الناحية الإدارية أو المالية أو غيرها، كذلك كانت له وقفة مماثلة في السياسة الخارجية، فقد رأى أن مساحة الدولة قد اتسعت، وأن أطرافها قد ترامت وتباعدت، ولعل كثيرًا من المشاكل والأخطاء التي وقع فيها بعض الولاة قد نشأت عن هذا الاتساع الكبير في مساحة الدولة، فكل إقليم كان يضيف إلى مشاكل الدولة عبئًا جديدًا، فرأى أنه من الحكمة إيقاف الفتوحات، أو الحد منها على الأقل؛ لأن التوقف عند حدود ما فُتح من بلاد وأقاليم، والعمل على حَلِّ مشاكلها، وعرض الإسلام عليها بأسلوب حكيم دقيق، وقدوة حسنة، سوف يكون أجدى من المضي في الفتوحات، بل ربما لا تكون هناك حاجة بعد ذلك إلى فتح جديد؛ لأن الناس سيقبلون على الإسلام من تلقاء أنفسهم، لأنهم سيجدون فيه كل ما يرضيهم، روحيًّا وماديًّا، وما يحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة، وقد تحقق ما تصوره في ذلك وزادت حركة الإقبال على الإسلام في البلاد المفتوحة في عهده زيادة كبيرة، وأخذ عمر في إرسال الدعاة من خِيرَة العلماء ليدعوا الناس إلى الإسلام، بدلاً من إرسال الجيوش للفتح، كما بدأ يرسل الكتب إلى الملوك والأمراء المعاصرين يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى أمراء ما وراء النهر، وإلى ملوك السند، يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم على بلادهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلما وصلتهم رسائله وكانت قد بلغتهم سيرته وعدله؛ فقبلوا وأسلموا، وتسمَّوا بأسماء عربية.

لم تطل حياة عمر بن عبد العزيز طويلاً، فقد اختطفته يد المَنُون ولم يتجاوز الأربعين من عمره، ويبدو أن انهماكه في أمور المسلمين ومتابعة السهر والعمل في شئون الدولة، وعدم اهتمامه بأمر طعامه وشرابه، قد أثَّر في صحته فلم يعد جسمه يقوى على المقاومة والاحتمال.

مروان بن الحكم

كانت هذه هي مميزات عهد القوة في الدولة الأموية، أمّا عهد الفتنة الذي تخلَّل عهدي القوة فقد بدأ بموت يزيد بن معاوية، ثم تنازل ابنه معاوية بن يزيد عن الخلافة؛ لرفضه مبدأ التوريث، واعتزاله الكامل في بيته حتى توفي بعد أيام أو أشهر، ومن هنا حدث فراغ في الحكم أسفر عن العديد من الصراعات بين أجنحة البيت الأموي بينهم وبين بعض، في الوقت الذي أعلن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما نفسه خليفةً، وبايعه أغلب الولايات الإسلامية؛ حتى استطاع الأمويون الاتفاق فيما بينهم، وبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة في مؤتمر الجابية في ذي القعدة سنة 64هـ.

كان مروان بن الحكم من سادات قريش وفضلائها، وقد قاتل يوم الدار قتالاً شديدًا، وقَتَلَ بعض الخوارج، وكان على الميسرة يكثر السؤال عن مروان حين انهزم الناس يوم الجمل، يخشى عليه من القتل، فلما سُئِلَ t يوم الجمل، وكان علي بن أبي طالب عن ذلك قال: إنه يعطفني عليه رحم ماسَّة، وهو سيد من شباب قريش.

بعد أن استقرت الأمور لمروان في بلاد الشام، توجه نحو مصر لاستردادها من الزبيريين، فدانت له بالطاعة، وأقام مروان بن الحكم في مصر نحو شهرين ثم غادرها في أول رجب سنة 65هـ بعد أن وطَّد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموي، كما ولَّى عليها ابنه عبد العزيز وزوَّده بالنصائح المهمة، ثم قفل راجعًا إلى بلاد الشام.

عبد الملك بن مروان:

وقد توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاثٍ خلون من شهر رمضان سنة 65هـ، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وذلك بعد عودته من مصر، وتولى ابنه عبد الملك الخلافة من بعده.

كانت شرعية خلافة عبد الملك بن مروان -وما زالت- محل خلاف بين علماء المسلمين، إذ في حين يعتبرها بعضهم شرعية، وأنه هو الخليفة الشرعي، يراها كثير منهم غير شرعية؛ لأن أغلب المسلمين قد بايعوا ابن الزبير قبله، فضلاً عن أفضلية عبد الله بن الزبير الصحابي الجليل عليه، وحسب هذا الرأي يُعتَبَر عبد الملك خارجًا على الخليفة الشرعي. ومن العلماء من توسَّط في الأمر كالسيوطي، فاعتبر ابن الزبير الخليفة الشرعي، فلما قُتِل صحت خلافة عبد الملك.

الحجاج يضرب الحرم بالمجانيق:

كانت بداية الحكم صعبةً على عبد الملك؛ إذ واجه ثورات عديدة، كان أهمها ثورة التوابين، والتي استطاع أن يقضي عليها في معركة غير متكافئة في عين الوردة، قُتِلَ فيها معظم التوابين، وزعيمهم سليمان بن صرد، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة 65هـ، ثم واجه ثورة المختار الثقفي، وتمكن المختار من هزيمة عبيد الله بن زياد وقتله، فتريث عبد الملك في مواجهته مرةً

أخرى، وترك لابن الزبير تلك المهمة حتى يُضعِف الطرفين، وبالفعل حاصره مصعب بن الزبير في قصره بالكوفة، وقتله سنة 67هـ. بعد ذلك حانت المواجهة بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير، وتمكن عبد الملك من الانتصار على مصعب بن الزبير أولاً، ثم أرسل جيشه بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي وحاصر عبد الله بن الزبير في مكة، وتجرَّأ الحجاج فضرب الحرم بالمجانيق؛ معتبرًا أن ابن الزبير بالتجائه إلى الحرم ممن يلحدون فيه، وظل القصف مستمرًا، ولم يتوقف إلا لأداء الحُجَّاج للمناسك، ثم عاد مرةً أخرى، حتى استسلم كثير من أتباع ابن الزبير، وتخلَّوا عنه، وطلبوا الأمان من الحَجَّاج، فأعطاهم إياه، ثم استُشهِد ابن الزبير t في السابع عشر من جمادى الأولى سنة 733 هـ، وبذلك انتهت دولته التي استمرت حوالي تسع سنين.

جهود اقتصادية غير مسبوقة:
كان عبد الملك إداريًّا نابغة، وكانت خلافته نقلة عظيمة في تاريخ المسلمين من حيث عودة الاستقرار، وإعادة الوحدة إلى ربوع الخلافة، والارتقاء بسياسة الدولة الإسلامية، وتكوين مؤسسات، ونشر الإسلام على نطاق واسع.

وكان من جهود عبد الملك في إرساء دعائم الوحدة والاستقرار في الدولة الإسلامية، إصدار عملة إسلامية لأول مرة وتوحيد أوزانها، ضمانًا للعدالة.

وكانت هذه خطوة حضارية كبيرة، فقد حررت اقتصاد الدولة الإسلامية من الاعتماد على العملات الأجنبية، وبصفة خاصة الدينار البيزنطي.

ومن الأعمال الباهرة لعبد الملك تعريب دواوين الخراج، والذي كان العمل فيه حكرًا على غير العرب، وكان هذا وضعًا شاذًّا، فجاءت خطوة عبد الملك لتصحح الوضع، وتفتح المجال أمام العرب المسلمين للعمل في هذا الديوان، والتدريب على شئون المال والاقتصاد، وكانت تلك الخطوة ذات أثر حضاري كبير في التاريخ الإسلامي.

وقد تُوُفِّي عبد الملك في النصف من شوال عام 86 هـ، واستخلف من بعده ابنه الوليد، ثم من بعده ابنه الثاني سليمان.

ضعف وسقوط الدولة الأموية

بقي أن نتحدث عن عهد الضعف الذي استمر آخر سبع سنوات من عمر الدولة، فقد تميز بالصراع بين أمراء البيت الأموي، الأمر الذي وصل لخروج بعضهم على بعض، وتدبير المؤامرات، وقد أثمر ذلك إهمال مرافق الدولة والجيش، وبالتالي توقف حركة الجهاد، وفساد الأوضاع في أنحاء الدولة الشاسعة، والانشغال عن إجهاض تحركات العباسيين؛ حتى سقطت الدولة على أيديهم بمقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين سنة 132هـ.

وفي نهاية القصة لا بد من معرفة أسباب سقوط الدولة الأموية بعد قوتها، ومن هذه الأسباب:

انقلاب الخلافة الإسلامية إلى الملك العضوض الوراثي

تولية العهد لاثنين في وقت واحد

ظهور روح العصبية

تخلِّي خلفاء بني أمية عن القيادة الدينية

النزاع بين أبناء البيت الأموي
الخلافات المذهبية بين أنصار بني أمية وأغلبيتهم من السنة، وأنصار العلويين من الشيعة، وجماعة الخوارج، وجماعة العباسيين

إهمال الخلفاء الأمويين لانتشار الدعوة العباسية